تأمل فقط

أن تفكر بشيء فهذا معناه معروف و بديهي... أن تفكر بشيء يعني ما يعمل به فكرك باستمرار حول ذلك الشيء من تذكر، تحليل، تخطيط و تخيل... و لكن اعتدنا على سماع و قراءة عبارات مثل التأمل على شيء ما أو التأمل على الجنة مثلاً... التفكير في الجنة جائز و مألوف فهل التأمل عليها جائز رغم أنه مألوف ؟؟؟

في الحقيقة جاءتنا كلمة «تأمل» كترجمة للكلمة الإنكليزية «Meditation» و الإنكليزية كغيرها من اللغات الغربية للحالة الحقيقية التي عرفها الشرق، و يعد هذا النقص لغوياً من جهة و نقصاً في الاختبار من جهة أخرى... نعلم أن هناك مصطلحات علمية بشكل خاص لا وجود لها إلا باللغات الغربية و لا مقابل لها في اللغات الشرقية و نلاحظ مشكلة كهذه في فوضى المصطلحات

العلمية المترجمة في أمتنا العربية... و عليه يصعب للغاية التعبير عن الحالة التي ترجت تسميته تأملاً بلغات غير شرقية .

توجد في الإنكليزية كلمات ثلاث و لها مقابلات شرقية وهي: الكلمة الأولى « Concentration» و تعني بالعربية التركيز على موضوع معين، الكلمة الثانية «Contemplation» و تعني التفكير بموضوع واحد دون استطرادات، بل البقاء مع الاختبار ذاته و المضي عميقاً بفهمه و استيعابه و هي تطوير للكلمة السابقة، أما الكلمة الثالثة فهي «Meditation» و قد شرحت في أول كتاب باللغة الإنكليزية عن التأمل على أنها المعنى الأعمق لكل من الكلمتين السابقتين، و كلا التعريفين غير مبرر و لا يفي التأمل حقه الفعلي .

هناك كلمة شرقية رابعة لا مقابل لها في الإنكليزية و هي «دهايان» و تعني حالة من اللافكر، و لا يمكن ترجمة هذه الكلمة بأي من الكلمات السابقة لأن جميعها تدل

على نشاطات فكرية... فإذا كنت مركزاً أو أنك تفكر أو تتفكر بعمق فأنت إذاً ذو هدف و حدودك واضحة و هي حدود الفكر و بالتأكيد يمكن للفكر القيام بالعمليات الثلاث السابقة دون أي عناء .

أما الحالة الحقيقية و هي دهايان – بالطبع لا يوجد مقابل عربي لها فهي حالة أعمق من الفكر و تتجاوزه .

وقعت هذه المشكلة في البداية منذ حوالي ألف و ثمانمائة عام، فبعد بوذا و عندما وصل تلاميذه إلى كل من الصين و اليابان لم يتمكنوا من إيجاد المقابل الصحيح للكلمة دهايان في لغات تلك البلدان، كما أن بوذا نفسه لم يستخدم الكلمة دهايان لأنها كلمة سنسكريتية و هذه الأخيرة لغة المعلمين و العارفين و هي بعيدة عن لغة العامة التي فضل استخدامها و تسمى لغة Pali .

لكن المترجمين الأوائل و الذين قاموا بترجمة النصوص الأولى شرحوا التأمل ظناً منهم أنهم فهموا المعنى الدقيق للكلمة دهايان... لقد كان معظمهم من المبشرين

المسيحيين و لم يكن لديهم أي تضور يتجاوز الفكر... إن عدم اعتقاد المسيحية بتجاوز الفكر حال دون إمكانية فهم حالة دهايان و أقرب ما توصلوا إليه هو الكلمة Meditation و قد وصلتنا على أنها تأمل .

لكنك عندما تقول «تأمل» عليك أن تقول بعد ذلك مباشرة « تأمل على ماذا ؟ » فالتأمل بطبيعته ذو علاقة بموضوع ما أما الدهايان فلا... لا يوجد في الدهايان «على» و إنما حالة من تجاوز الفكر و عندما تتجاوز الفكر تتجاوز كل الأهداف و تصبح أنت بحقيقتك ... ليست الدهايان عملية وإنما حالة وجودية؛ ليست حلاً وسطاً بين الذاتية والموضوعية و إنما ببساطة قطرة ندى تنساب من وردة لتذوب في المحيط .

فالمسألة إذاً سوء تطابق لغوي فعلينا ألا نكرر عبارة « تأمل على أي شيء » التي أفقدتنا كل شيء... هناك حالة خاصة في هذا السياق، فقد نقرأ أو نسمع عبارة» تأمل على الجنس» و هذا لا يعني التفكير بالجنس أثناء التأمل أو

التأمل أثناء ممارسة الجنس و إنما تعتبر ذروة الجماع حالة تأملية ينعدم عندها الفكر، و هي التي فتحت الباب أمام موضوع التأمل و الابتعاد فيه وصولاً إلى حالة العزوبية وتجاوز الجنس. {راجع كتاب « من الجنس إلى الضمير الكوني »}

تعال معي أخي العربي نصطلح منذ الآن أن الكلمة العربية «تأمل» هي ترجمة للكلمة الشرقية «دهايان» أي حالة انعدام الفكر و لننسى كل شيء عن المديتيشن.

عندما نتأمل نكون بحالة صمت تام فلا فكرة نركز عليها و لا موضوعاً نفكر به و لا هدفاً نتعمق بالتفكير به... في التأمل ينعدم الآخر و في اللحظة التي ينعدم فيها الآخر لن تعود قادراً «كغرور» على التواجد لأنك جزء منه... فأي معنى للظلمة عندما يختفي الضوء، و أي معنى للموت عندما تزول الحياة... ؟ الـ«أنا» و الـ«أنت» محكومان بأن يتواجدا معاً أو يزولا معاً، و ماذا يبقى عند زوالهما ؟ تبقى الطاقة الكونية وحدها .

التأمل ذوبان في الكون .

أما الفكر فهو العائق فكلما ركزت أكثر فكرت أكثر و كلما تفكرت « تأملت على » أكثر و عندها لن تخرج من سجن الفكر الذي هو القطرة التي عليها الذوبان في المحيط .

هناك ملاحظة علينا ملاحظتها: يتم ابتداع الكلمات عندما نواجه اختباراً محدداً و لا نستطيع التعبير عنه باللغة الموجودة ...

و لكن في الشرق و لا سيما في الهند تم تكريس عشرة آلاف عام للعمل على موضوع واحد و هو التأمل «الدهايان» و عليه فلا حاجة لنسأل «على ماذا ؟» لأنه لا يوجد قرين ثنائي فعلي لهذه الحالة .

التأمل هو صمت و صمت مطلق؛ التأمل سكون .

و لكن إذا كان من الخطأ قول « تأمل على » فماذا يؤدي فعلياً من يقومون بهذا ؟ إنهم ببساطة لا يفعلون شيئاً... لا يتأملون... ما دمت تتأمل على فلا زلت تفكر، و ما دمت

تفكر فهذا يعني أن غرورك «أناك» لا زال موجوداً، و لا تتحدث سوى عن اختبارات وجودية و لم تصل لأعمق من ذلك سوى باستعارة كلمات جميلة... التأمل و الفكر يا أخي كالموت و الحياة لا وجود لأحدهما بوجود الآخر.

التأمل انعدام للأنا و ذوبان في المحيط و لكن أن نقول «أتأمل» فمن الذي يتأمل ؟ إنه الأنا و ما دام هذا الأنا موجوداً فالأنت لا زال موجوداً أيضاً؛ مادام المختبر موجوداً فلا زال الاختبار موجوداً و بالتالي لا زالت الثنائية و بالتالي لن تتجاوز الفكر و لن تبلغ أي حالة من التأمل.

كلمات جميلة لا ندرك معانيها لكن حكماءً مثل بودهي دهارما يختار المريد الذي لم يجب بشيء كخليفة له، فأي جواب سيكون خاطئاً؛ أي جواب سيعني أنك لا زلت موجوداً و سيعني أي جواب بأن الفكر لا زال موجوداً يعمل... محكوم بالخطأ على أي جواب... تم اختيار الإنسان الذي لم يمتلك سوى دموع الفرح و السقوط على قدمي المعلم بشكر و امتنان عظيمين... فلا يمكن قول شيء.

في اللحظة التي يتوجب عليك فيها قول شيء ما سيتوجب عليك استخدام كل من الفكر و اللغة و من الطبيعي عندها أن تتدخل كل من حدود الفكر و تناقضات اللغة.
فعند قولك «أتأمل» تفهم على أنك تقول «تحررت من غروري و لم أعد أعاني من الأنا و زالت جميع الحدود ... » و لكن لو أنك زلت فعلاً فمن الذي أكمل الحديث ؟ وحدود من هي التي زالت و بين من و من هي ؟ حدودك أنت فلا زلت موجوداً و عليه لا يمكن للحدود أن تزول... هل سمعت قطرة تنادي « اسمعوا و انظروا ها أنا أذوب في المحيط؟ » لا يجوز هذا، يذوب أحدنا في المحيط و لا يوجد بعدها ما يقال .
لا يسود سوى الصمت المطلق .
و نستمر باستعارة الكلمات الجميلة التي ربما نكون قد قرأناها أو سمعناها كأن نقول « الذوبان في الكلية، التلاشي في النور، اللاوزن{ليس علماً} و الفرح الغامر» ولكن أيضاً من الذي يختبر كل هذا ؟ لاختبارات كهذه

نحن بحاجة لأنا، بحاجة للفكر و للغة و جميعها اختبارات وجودية فعلينا في المقام الأول ألا نقول شيئاً .

كان أحد معلمي الزن جالساً على شاطئ البحر عندما مر به الملك الذي طالما رغب برؤيته إلا أن الحروب و مشاكل الملك حالت دون ذلك... كانت فرصة ذهبية لذلك أوقف الملك عربته، ترجل منها ثم سار إلى المعلم و قال « ليس لدي الكثير من الوقت لكنني أريد أن أعلم ما هي تعاليمك الجوهرية فلا أريد الموت جاهلاً. »

بقي المعلم صامتاً !!

فقال الملك « لقد فهمت، أنت رجل متقدم في العمر و لا بد أنك مصاب بالصمم. »

لكن المعلم ابتسم .

فصرخ الملك بأذنيه « أريد أن أعلم جوهر تعاليمك . »

لم يتحدث المعلم بشيء لكنه كتب بأصبعه على الرمل «دهايان.»

فقال الملك « سمعت بهذه الكلمة من قبل عدة مرات و لا تعني لي الكثير، هلا فصلت بعض الشيء . »

فتحدث المعلم أخيراً « سقطت للتو لأجلك، لكن الجواب الصحيح هو الأول عندما بقيت صامتاً، لكنك على ما يبدو لا تعلم مقدار الوصال الكائن في الصمت، و كتبت تلك الكلمة بدافع الشفقة عليك و تريد التفصيل... سأحاول »

كتب الكلمة نفسها بخط أكبر مما جعل الملك يشعر ببعض الغضب و يقول « أي نوع من التفصيل هذا ؟ إنها نفس الكلمة !!»

فقال المعلم أخيراً « عليك أن تعذرني فلا أستطيع السقوط لأجلك أكثر، سقطت في المرة الأولى ولا أريد للتاريخ أن يسخر مني، لم يقل أحد شيئاً عن الدهايان و لا يستطيع أحد قول شيء . »

و لكن ما الذي يفعله المعلمون عبر العصور ؟ كانوا يطورون وسائلاً وحالات علها تساعد واحداً من كل ألف

من بني الإنسان على التبصر، ليست هذه الحالات تأملاً لكنها وسيلة تمكنك من الوصول إلى نقطة محددة في فضائك الداخلي تصبح قادراً عندها على الإدراك، وفي اللحظة التي تدرك فيها حالة التأمل تصبح جميع تلك الوسائل مجرد أسماء لا معنى لها، لأنها في الحقيقة وسائل ابتكرت من لا يمتلك وسائلاً للاتصال بحقائق أعلى من الفكر .

عندما تقول « تأمل على » لا هو تأمل و لا أنت متأمل لكن اللغات و حتى أغزرها فقيرة بما يخص الوجود الداخلي للإنسان و لا تمتلك أي منها أية كلمة ذات دلالة لأن الملايين من البشر عاشت و لم يفكر أحد تقريباً بالنظر داخلاً ... و إذا حصل أحياناً و فعلها أحدهم سيجد فضاءً غير قابل للترجمة بأية وسيلة... عليك ألا تستوعب مشكلتك و صعوبتك وحدك بل عليك استيعاب مشكلة ذلك الإنسان الذي بلغ وجودياً مرحلة لا يمكنه عندها الترجمة .

سؤل كيبر و هو صوفي هندي السؤال نفسه فضحك و قال « لا أستطيع قول شيء لكنني أستطيع إعطاءك إشارة ... إنها كاختبار شيء غاية في الحلاوة من قبل شخص ثمل، يدرك لكنه لا يستطيع الكلام... لا يعتبر الثمل عاجزاً عن اختبار الحلاوة لكنك إن سألته عما يختبر فلن يكون قادراً على قول شيء. » تسبب هذا العجز عن الوصف بضياع العديدين فقد ظنوا بأن غير القابل للوصف غير قابل للوجود؛ اعتقدوا أن قابلية الوصف و إمكانية الوجود أمران متلازمان حكماً... و بالطبع فالحقيقة غير كذلك .

ماذا يمكنك القول عن الحب ؟ كل ما ستقوله لن يكون صحيحاً، و عندما تكون في حب فلا يمكنك أن تقول «أنا أحب» فهذا صغير للغاية مقارنة باختبار كالحب، لكننا بدأنا نقول هذه الكلمة عندما اختفى من حياتنا الحب .

يقول فيلسوف أمريكي في كتاب له « قبل زوجتك عند عودتك إلى المنزل و قل لها «أحبك»، و قبلها عند مغادرتك للمنزل و قل لها «أحبك».»

هناك ملايين الحمقى ممن يفعلون هذا... و تعلم الزوجة أنه مجرد خداع و يعلم الزوج أنه ليس أكثر من ذلك .

عندما تكون في حب سيجعلك الحب تقف مكتوف الأيدي عاجزاً عن قول كلمة واحدة، و لماذا ؟ لأنه اختبار واسع و غاية في الضخامة.

لم يسبق و أن وصف اختبار الحب الحقيقي من قبل أي شاعر و لا يمكن له أن يوصف .

الحب جزء من حقيقتنا العادية كما هي الحلاوة و المرارة، أما فضاءات التأمل الداخلية فليست جزءً من اختبارنا المعتاد... فإذا عثر أحدنا عليها فهو غير قادر على وصف ما وجد .

كان هناك رجل ياباني نسي الناس اسمه و كل ما تذكروه عنه هو «بوذا الضاحك» لأنه لا يتحدث أبداً

وعندما يسأله أحدهم سؤالاً فإن جوابه واحد و هو الضحك... إنه شخص بغاية الصدق و الموثوقية فلم يعترف بلغة، بفكر أو بتعبير... فقط يضحك... فإذا استطعت أن تفهم شيئاً من ضحكه أو ابتسامه فهو لك، لكن معظم الناس ظنوه قد جن .

عندما بلغ بودهي دهارما حالة التأمل فإن أول شيء قام به هو الضحك العميق العالي لكنه كان رجلاً عارفاً و ليس كاليابابي الضاحك البسيط و لم يضحك بعدها أبداً .

سؤل مرة من قبل المريدين « ما هو أول شيء أردت فعله بعد تحقيق الاستنارة ؟ » فقال « في البداية لم يعد هناك أنا فأشرق ضحك عميق إلا أنني أبقيته داخلاً خشية أن يظنني الناس مجنوناً، و قد نصحني المعلم فقال « حتى و إن كان المعلم حكيماً للغاية فنادراً ما يجد مريداً صادقاً، فإذا اعتقدك الناس مجنوناً فإن إمكانية إحداث تغيير ما ستكون جديرة بالإهمال» لذلك حافظت على ضحكي الداخلي... اضحك داخلياً و لا تظهر ضحكك لأحد. »

تعتبر شخصية بودهي دهارما غير مألوفة لدينا، لذلك أعتقد بأن ندرة منا من رأت له صوراً، في صور هذا المعلم من الجدية ما يمكن من استخدامها لإرعاب الأطفال! لكن أحداً لم يتساءل عن الذي حصل... كان أميراً و لا تمثل هذه الصور وجهاً لأمير جميل، لقد احتفظ بفرحه وضحكه داخلاً مما سبب اضطراباً في الوجه و جحوظاً في العينين... قرر أن يبقى غامضاً ! و لكن لم يقرر واحد من أجمل الرجال أن يحتفظ بهيئة صارمة لهذه الدرجة ؟ لقد كان في حيرة فإذا ضحك فسيرى الناس جماله لكن المعلم قال « لا تضحك و إلا لما نظر أحد إليك بغموض » لذلك توجب عليه الاحتفاظ بهيئة غامضة، و عندما تتمكن من الاحتفاظ بضحك صاخب داخلك يمكن لك تغيير كل شيء .

عليك في البداية أن تفصل اختباراتك عن معارفك و ثقافتك لأن هذه الأخيرة أشبه ما يكون بروث البقر الذي لا يتحول إلى شيء ثمين إلا عند التخلص منه و نثره بعيداً، إن من

شأن اختبار كهذا أن يقدمك إلى معنى التأمل و هذه هي مهمة المعلم أي إعطاؤك الطريق نحو تلك الحقيقة، أما الحقيقة عينها فلا بد لك من التعرف عليها بمفردك.

آملةً بمفاجأة زوجها بشعرها المستعار الذي اشترته للتو، دخلت الزوجة مكتب زوجها وقالت بإثارة « أتظن أنك ستجد في حياتك مكاناً لامرأة مثلي » فأجاب « لا أظن فأنت شديدة الشبه بزوجتي . »

علينا أن نحذر الأشعار المستعارة و علينا أن نتذكر أن كل ما ينمو في الداخل لا يمكن أن يتشوه، يتلوث أو يتسمم بتأثير الملايين من حولنا فهو أهل للثقة لأنه حقيقتنا التي لا نجد ذواتنا فيها، و في اللحظة التي نفقد فيها ذواتنا يغمرنا نور عظيم و فرح؛ تغمرنا نشوة لا نستطيع التحدث عنها لأن ذلك الذي اعتاد على الحديث ذهب و لن يعود .

لدى الصوفيين واحد من أقدس الكتب في العالم و قد يكون الكتاب الوحيد المقدس و قد احتفظوا به منذ حوالي ألف و أربعمائة عام... في الحقيقة لا يمكن لأي دار

نشر أن تطبع هذا الكتاب لأنه لا يحتوي ما يطبع... إنه فراغ محض .

اعتاد المعلم الأول الذي حصل على الكتاب على الاحتفاظ به تحت وسادته... أصيب الريدون بفضول كبير فالمعلم يتحدث عن كل شيء و يكتفي بالابتسامة عندما يسأل عن الكتاب... حاولوا بمختلف الطرق معرفة ما في الكتاب إلا أن المعلم كان شديد الحرص و الحذر مما حال دون تحقيق هذا المسعى .

لم يكترث الكثيرون عند وفاة المعلم بل كان همهم معرفة ما في الكتاب لكنهم أصيبوا بالدهشة عند رؤيته فارغاً و لو من كلمة... أما هؤلاء الذين أوتوا نوراً و يقظة فقد أدركوا مقدار رأفة المعلم بهم بعدم قوله أي شيء عن الكتاب بل ترك لهم مهمة الاكتشاف .

لا زال الكتاب موجوداً بصيغة محرفة فقد قام ناشر بريطاني بنشره لكنه كان قلقاً حول إمكانية بيعه فقام صوفي متصوف{مزيف} بكتابة تقديم عن الكتاب

openkandil.com

وتاريخه لمدة ألف و أربعمائة عام... و بالتالي كتب شيء عن هذا الكتاب لتتم قراءته مما دمر سره كاملاً.

أنت سر لا يمكن لأي لغة احتواؤه أو التعبير عنه، لا و تذكر شيئاً كمقياس:

إن كل ما يتم النزول به إلى مستوى اللغات صنيعة فكرية... و التأمل حالة يتوقف فيها الفكر عن العمل وتتحول إلى مجرد وعي، ليس وعيك وحدك بل وعي طاهر كوني .

وحتى أبسط الأفكار مثل « أنا هذا، أستمتع بالفرح الغامر و أستمتع بالنشوة الغامرة...» يأتي الفرح الغامر والنشوة الغامرة بطوفان عظيم، طوفان لا يمكنك الاستمرار بوجوده... عندما يغمرك الفرح و النشوة لا يسعك سوى التبخر و التلاشي .

كان بوذا محقاً عندما قال « يمكنني الإشارة إلى القمر فقط، لكنني لا أستطيع التعلق بأصبعي، فالإصبع ليست قمراً » لكنها مدهشة حماقة الإنسان، فبعد بوذا و لأنه

قال « لا تبنوا لي تماثيلاً فلست هنا لأعبد و إنما لأنني قادر على إيقاظكم » إلا أنه لم يحرم شيئاً... لم يعلم مقدار جهل الإنسان، فقد بنيت له المعابد و التماثيل الجميلة النفيسة بإصبع تشير إلى القمر و نسي كل شيء عن هذا الأخير... نسينا القمر و عبدنا اليد التي تشير إليه...!! إن كل ما قدمه بوذا و غيره من المعلمين ما هو إلا إصبع تشير إلى القمر... دع الإصبع جانباً و انظر إلى القمر.

علينا إلا نقع في شرك اللغات و النحو و الصرف فهذه أمور لا علاقة لها بل انظر إلى القمر، مهما كان جمال الإصبع متواضعاً فيمكنها أن تشير إلى القمر أما اللغات فليست فائقة الجمال بل يمكن لمن يتمتع بالحكمة الكافية أن يدعها جانباً و يصغي إلى الجوهر.

و لكن لا تبدأ اعتقادك بهذا الجوهر بالحديث عنه بل اجعله اختباراً لك، و عندما يصبح اختباراً لك لن تكون قادراً على تقديم أي وصف أو شرح، يمكنك أن تبكي من الفرح؛ يمكنك أن تضحك كما يمكنك أن ترقص

وربما تكون هذه الإشارات ذات دلالات أعمق و أبلغ من اللغة.

رقصت ماري و هي إحدى أجمل نساء الأرض، وكانت ملكة... و لكن عند اللحظة المناسبة فتح فضاؤها الداخلي فنسيت كل شيء عن القصور و بدأت ترقص في شوارع عاصمتها... استاءت العائلة بالطبع و عملت على ملاحقته و منعها لكنها قالت « وجدت ما لا يمكن التعبير عنه بغير الرقص، و سأرقص على مدار البلاد. »

و هكذا رقصت الملكة على امتداد البلاد لكن لا أدري كم هم هؤلاء القادرين على فهم معنى الرقص... غنت الملكة أغنيات ليست كمقالات فلسفية و إنما فيها فجوات رائعة يمكن لمن يكتشفها أن يدخل عالم الأسرار... كان رقصها لغة من مقام مختلف تماماً .

إذا كنت قادرا على فهم رقص كهذا فمن الممكن أن يبدأ شيء ما بالرقص داخلك، و كل ما تحتاجه هو قابلية استقبال هذا الرقص... و عندها يمكن لرقص الملكة أن

يطلق الطاقة الكامنة في وجودك، و إذا استطعت الرقص فأنت الآن موصول؛ أنت الآن قادر على معرفة ما التأمل... عندها لن تكون هناك ملكة واحدة بل العديد... إذا لم تكن قادراً على فهم التأمل هنا ستكون أمكانية ذلك متواضعة جداً في مكان آخر فالعالم مغرق في ماديته، و يحاول المعلمون على ندرتهم إنقاذنا من الطرق المزدحمة حيث لا خرائط و لا إشارات مرور تخشى الطوائف تناقص جموعها التائهة في الشوارع، فلا يريد أحدنا أن يفقد بعض الأصوات في معركته الانتخابية .

جميع أديانا هي و بكل بساطة قوى و تجمعات سياسية، و نجد باسم الدين جميع أشكال المخادعة و جميع أشكال المتاجرة بالإنسان... وحده الإنسان الفرد من يستطيع معرفة معنى التأمل و معرفة معنى الجمال و النشوة و وحده يستطيع إدراك جمال رقصة الوجود الجميل الجميلة. لم يسبق و أن استنارت حشود الأديان و التجمعات، الفرد وحده هو القادر على ذلك .